

بفتح الإسلام

يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية



أحمد أمين

Dia İqin + arandı.

مؤسّسة أحمد أمين الإسلامية

في الإسلام المرّة

يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية

تأليف

أحمد أمين



الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
للناشر

الطبعة العاشرة

١٩٦٩ م

موسوعة أحمد أمين الإسلامية

صدر منها

- فجر الإسلام يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية
- ضحى الإسلام الأول كتاب على طراز "فجر الإسلام" يبحث جزؤه هذا في الحياة الاجتماعية والثقافات المختلفة في العصر العباسي الأول
- ضحى الإسلام الثاني يبحث عن نشأة العلوم في العصر العباسي الأول
- ضحى الإسلام الثالث يبحث في الفرق الدينية من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج كما يبحث في تاريخهم السياسي وفي أدبهم
- ظهر الإسلام الأول يبحث في الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجري
- ظهر الإسلام الثاني يبحث في تاريخ العلوم والآداب والفنون في القرن الرابع الهجري
- ظهر الإسلام الثالث يبحث في الحياة العقلية في الأندلس، من فتح العرب إلى خروجهم منها، ويتكلم في الحركات الدينية واللغوية والنحوية والأدبية والفلسفية والتاريخية والفنية
- ظهر الإسلام الرابع يبحث في المذاهب والعقائد وتطورها وفي الصراع فيها، وفي المرحلة الأخيرة عن تدوينها في متون ثم شرح هذه الملخصات مع نظرات في مستقبل المذاهب الإسلامية.
- زعما والإصلاح في العصر الحديث هذا كتاب يتضمن سيرة عشرة من المصلحين المحدثين في الأقطار الإسلامية المختلفة

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب نحو أول سنة ١٩٢٩ ، وكان ما لقيته من الباحثين من أهل العربية والمستشرقين أكبر مشجع لي عملي ، فقد نقدوه وقرظوه ، وانتفعت بما أبدوه من آراء قيمة في نقده وتحليله ، أذكر منهم الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور برجستراسر ، والدكتور شادة ، والأستاذ مرسية ، والأستاذ جعفرى .

وكنت أود أن أتوسع في بعض فصوله وأزيد فيه فصولاً لم تكن ، وأحكي آراء الباحثين من المستشرقين فيما ذهبوا إليه أخيراً ، ولكن اشتغالي في إخراج « ضحى الإسلام » منعى من تحقيق كل رغبتى فحققت من ذلك ما استطعت ، وزدت في هذه الطبعة بعض أمثلة عثرت عليها أثناء قراءتى ، وأوضحت بعض ما غمض ، وصححت ما عثرت عليه من خطأ في الطبع أو فى الرأى ، والله أسأل أن ينفع به كما نفع بأصله .

أحمد أمين

يناير ١٩٣٣

مقدمة الطبعة الأولى

للكنور ط حسين

في نفوس الناس الآن من الأدب العربي ودرسه صورة جديدة مخالفة لما كان في نفوسهم منذ سنين ، ولكنها صورة غامضة على جدتها وطرافتها ، أو هي غامضة لجدتها وطرافتها ؛ فالناس جميعاً لا يطمئنون الآن إلى ما كانوا يطمئنون إليه من أن الأديب يجب أن يروى طائفة جيدة من مختار المنثور والمنظوم ، وأن يلم بما يتصل بهذا المنثور والمنظوم من لغة وتاريخ وقصص ونسب لشرحه وتفسيره ونقده ليكون أديباً ، وإنما هم يطلبون إلى الأديب شيئاً آخر : يطلبون إليه أن يكون مرآة صافية وضاءة أمينة لخير ما في عصره إن كان أديباً منشئاً وأن يكون مرآة صافية وضاءة أمينة للأدب الذي يريد درسه إن كان أديباً واصفاً . وليس المختار من المنظوم والمنثور إلا صوراً لألوان من حياة الأفراد والجماعات ، فيها القوى وفيها الضعيف ، فيها الجيد وفيها الرديء ، فيها الرضى وفيها البغيض . والناس لا يريدون الآن أن يقنعوا بهذه الصور يحفظونها ويستظهرونها ، ويلقون عليها أبصارهم متعجلين لا يحققون ولا ينعمون ، وإنما يريدون أن يتعرفوا ما وراء هذه الصور ويتعمقوا حقائقها ويعرفوا - إلى أقصى حدود المعرفة - دقائق هذه الحياة النفسية التي اضطربت بها الأفراد والجماعات فأنشأت ما أنشأت من نثر ونظم .

الناس يحسون ذلك ويشعرون به ، ثم يؤدون حسهم وشعورهم بهذه الشكوى المتصلة من ضعف الأدب العربي وفساده ، وقصوره عن أن يثبت للأدب الأجنبية ، وبهذا الازدراء المتصل بالأدباء وأساتذة الأدب ، وما ينتج أولئك وهؤلاء من أدب إنشائي أو وصفي ، وبانصراف كثير منهم عن الأدب العربي قديمه وحديثه إلى الأدب الأجنبي يفتنون به ، ويتهاكون عليه ، ويؤثرونه لا يعدلون به شيئاً .

ولكنك تسألهم : ماذا يريدون من الأدب العربي ليقروا ويحبوه ؟ وماذا يريدون من الأديب العربي ليسمعوا له ويصغوا إليه ؟ فيجيبونك أجوبة غامضة ملتوية لا تكاد

تحقق شيئاً مما يجدون في أنفسهم إلا أنهم يكرهون هذا الأدب العربي ويتبرمون به ، ويرونه بعيداً كل البعد عن أن يرضى حاجات نفوسهم ، ويحقق ما لعقولهم من مطامع . وقد أحس أساتذة الأدب أنفسهم نفور الناس من أدبهم ، وانصرافهم عنه منذ أول هذا القرن ، فجدوا في أن يلائموا بين أدبهم وبين عقول الناس ، وحاولوا التجديد والإصلاح ، فنشأ في مصر ما سموه تاريخ الأدب . وتغير اسم الأدب نفسه بعض الشيء فسمى في الكتب والبرامج الرسمية هذا الاسم الجديد الغريب بعض الشيء : أدب اللغة ، أو آداب اللغة . ولكن أساتذة الأدب لم يفهموا عن الناس شكواهم على وجهها ، فلم يتصوروا التجديد في درس الأدب على وجهه ، وخيل إليهم أن التجديد في درس الأدب إنما يكون إذا صيغت كتب الأدب العربي صيغة كتب الأدب الأجنبي ، وأرخ الأدب العربي على نحو ما يؤرخ الأدب الأجنبي ، فقسم إلى عصور ، وترجم في كل عصر لطائفة من الكتاب والشعراء الناهيين . وأشير - في إيجاز - إلى ما يسمونه المؤثرات الأدبية أو العلمية التي تتميز بها العصور بعضها من بعض ، واستحدثت ألفاظ جديدة هي في حقيقة الأمر ترجمة لألفاظ أجنبية ، لا تدل في أدبنا العربي على شيء ؛ وعلى هذا النحو نشأ في مصر نوع من الأدب جديد ، لا هو بالعربي القديم ، ولا هو بالأجنبي الحديث ، وإنما هو شيء بين قصر عن ذلك ، ولم يبلغ هذا . وعشنا على هذا الأدب حيناً ، ولكن شكوى الناس لم تنقطع ، ونفورهم من الأدب العربي وانصرافهم إلى الآداب الأجنبية لم يزداد إلا شدة وإلحاحاً ، وكان طبيعياً أن تتصل هذه الشكوى ، وكان طبيعياً أن يشتد هذا النفور والانصراف ، لأن رقى الحياة العقلية في مصر اطرده منذ أول هذا القرن ، ولأن اتصال هذه الحياة العقلية المصرية بالحياة الأوروبية اشتد واستوثقت عراه ، بينما لم يطرده رقى الأدب العربي ولم يتصل بالأدب الأجنبي ، ولم يزد أساتذة الأدب في هذه الأيام على ما وضعوه من صور جديدة في أول القرن ، فضى الناس قدماً وتخلف الأدباء .

وقام بين الناس وأساتذة الأدب سور من اليأس عميق صفيق حال يذم وبين أن يفهم بعضهم بعضاً ، فأما الناس فاستيأس أكثرهم من الأدب العربي ، وأخذوا يروضون أنفسهم على الاستغناء عنه والاكتفاء بالآداب الأجنبية ، وأما أساتذة الأدب فاستيأسوا

من الناس واستيقنوا أن الحضارة الأجنبية قد أفسدت العقول والقلوب ، وعكفوا على أدبهم هذا المشوه يعيدونه ويبدئونه ، ثم يعيدونه ويبدئونه ويزجون زجاً في نفوس الطلاب والتلاميذ ، لا يحفلون بما يتركون في نفوس هؤلاء الطلاب والتلاميذ من أثر ، ولا يحفلون بما يستبقون لهذا الأدب العربي من حياة ؛ ومع ذلك فليس الأدب العربي أقل حياة من الآداب الأجنبية مهما تكن ، وليس الأدب العربي أقل صلاحاً للبقاء واستحقاقاً للعناية الخصبة والدرس المنتج من الآداب الأجنبية مهما تكن . وكل عيب الأدب العربي أنه مجهول لا يحسنه أصحابه ولا يتعمقونه . وكل ما يحول بين الأدب العربي وبين الحياة والخصب والنتج أن مناهج البحث عنه والاستقصاء له سيئة رديئة لم تنظم بعد ، ولم يتناولها الإصلاح في مصر كما تناول إصلاح المناهج العلمية الأخرى ؛ فالناس يدرسون الطبيعة والكيمياء وغيرهما من العلوم التجريبية درساً صحيحاً مستقيم المناهج كما تدرس في أوروبا ، ولكنهم لم يوفقوا بعد إلى هذا الحظ من الشجاعة الذي يكفي لأن يتصور الأدب كما تتصور العلوم ؛ ولأن يدرس الأدب كما تدرس العلوم . وبقيننا أنه لو تغير تصور الناس للأدب وتغيرت مناهجهم لاستقصائه والبحث عنه لتغير الأدب نفسه ، ولكان درسه في مصر منتجاً قيماً ، كما أن درس العلوم التجريبية فيها منتج قيم .

على هذا النحو من الاستعداد أقبل زملائي ، وأقبلت على درس الأدب العربي في الجامعة حين كلفنا هذا الدرس منذ سنين ، وكنا نحدث أنفسنا بأننا نحاول تجربة شاقة ، إن تفلح فقد استطعنا أن نحجي الأدب العربي ونبعث فيه روحاً جديداً يمكنه من النمو والنهوض والتسلط على عقول الناس وقلوبهم ، والتعبير عن أهوائهم وميولهم ، والأخذ بحظه من الحياة القوية الغنية بين الآداب القائمة ، وإن لم تفلح فلم يضع الوقت ولم تذهب الجهود عبثاً ، وإنما هي محاولة يمكن الانصراف عنها إلى محاولة أخرى ، وطريق يمكن للعدول عنها إلى طريق أخرى ، كما يفعل كل عالم مؤمن بعلمه ، جاد في العناية به ، وكنا مؤمنين بالأدب العربي ، وكنا جادين في العناية به ، وكنا مخلصين في هذه التجربة ، لا نحفل بما نجد فيها من مشقة ، ولا نفتر أمام ما يعترضنا فيها من عقبة ، وكنا نجد في هذه المشقات والعقبات وفي تذليلها والقدرة على اجتيازها لذة تدفعنا إلى العمل وتحثنا على

المضي فيه ، وكنا نجد من استعداد الطلاب وتفتح نفوسهم لهذا الأدب العربي ما يضاعف هذه اللذة ويشد من عزائنا للمضي فيما نحن بسبيله ، وكنا كلما خطونا خطوة أحسنا أن أقدامنا لا تزدد إلا ثباتاً ، وأن الطريق تنبسط أمامنا مستقيمة واضحة الأعلام ، ويخيل إلينا أن قد قطعنا من هذه الطريق مرحلة يحسن أن نقف عندها بعض الشيء ، ويحسن أن نظهر الناس على ما وجدنا فيها .

على أننا لم نقطع هذه المرحلة في سهولة أو يسر ، وإنما وجدنا أمامنا طائفة ضخمة من الأنقاض ، بذلنا جهداً غير قليل في إزالتها لتخلص الطريق لنا ، وتستقيم أمامنا ، وكثير من هذه الأنقاض كان في نفوسنا ، فكلم تراكت فيها تريتينا الأولى وكلم ترك فيها تعليمنا الأول ، وكلم حفظنا من أشياء لم يكن لنا بد من أن نخلص منها ونتخفف من أثقالها ، وننبذها على شيء من الألم والحزن كان يخالج نفوسنا ، وأي شيء آلم للنفس وأثقل عليها من هذا الجهد الذي يفرق بينهما وبين ما أحبت وألفت منذ عرفت البحث والتفكير ؟

وكثير من هذه الأنقاض لم يكن في نفوسنا ، ولكنه كان في نفوس الناس ، وكان في الكتب ، ولم يكن جهداً في إزالة تلك الأنقاض الخارجية أقل من جهداً في إزالة تلك الأنقاض الداخلية ، إن صح هذا التعبير :

ومهما يكن من شيء فقد يخيل إلينا أن جهودنا لم تذهب عبثاً ، ولم تمض سدى ، وإنما نستطيع أن نظهر الناس من القرن الأول للهجرة على صورة جديدة ، إلا نكن قد وفقنا إلى إتقانها وتحديدها من جميع أقطارها فقد وفقنا إلى أن نظهر منها المقدار الذي يمكن غيرنا من الوصول إلى حيث لم نصل والانتفاء إلى ما لم ننته إليه :

والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله ، وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو غيرها . ونحن لا نزعم لصورتنا هاته التي نعرضها من القرن الأول للهجرة أنها الصورة الأخيرة ، وإنما نزعم أنها الصورة التي انتهى إليها بحثنا على ما بذلنا فيه من جهد ، وما اصطنعنا فيه من دقة ، وما تحرينا فيه من إنصاف ، وقد ينكشف بحثنا وبمحت غيرنا عما يغير هذه الصورة كلها أو بعضها ، فإن يكن ذلك فنحن أشد الناس به اغتباطاً وله ابتهاجاً : ذلك أننا